وبعثت إلى الناس عامة »[1].

« فتيمموا صعيداً طيباً » ، أي أن تكون واثقاً أنه ليس عليه نجاسة ، « فامسحوا بوجوهكم وأيديكم » ، المسألة فيها « جنب » وفيها كذا وكذا . . « وتيمم » ، إذن فكلمة « فامسحوا بوجوهكم وأيديكم » ليس ذلك معناه أن التيمم خَلَف وبديل عن الوضوء فحسب ، ففي الوضوء كنت أتمضمض ، وكنت أستنشق ، وكنت أغسل الوجه ، وكنت أغسل اليدين ، وأمسح الرأس والأذنين . . مثلاً ، وأنا أتكلم عن الأركان والسنن . وفي هذه الآية يوضح الحق : مادامت المسألة بصعيد طيب وتراب فذلك يصح سواء أكانت للحدث الأصغر أم للجنابة ، إذن فيكفي أن تمسح بالوجه واليدين .

« فامسحوا بوجوهكم وأيديكم » وتساءل بعضهم : أهي ضربة واحدة تلمس بها الأرض أم ضربتان ؟ نقول : سبحانه قال : « فامسحوا بوجوهكم وأيديكم » ، وبعض العلماء قال : ضربة واحدة ، وبعضهم قال : ضربتان وكلها تيسير . وهذا التخفيف مناسب لكلمة العفو ، فيقول الحق : « إن الله كان عفواً غفوراً » ولكن ماذا حدث هنا ليذكر المغفرة ؟ لأنه غفر وستر علينا المشقة في ضرورة البحث عن الماء ويسر ورخص لنا في التيمم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ ﴾

حين يريد الحق سبحانه وتعالى أن يؤكد قضية من قضايا الكون ليمهد لقضية من قضايا العقائد التي تحرس نظام الكون فهو يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم

(١) رواه البخاري ومسلم والنسائي عن جابر .

بقوله : « ألم تر » . والرؤية عمل العين - وعمل العين متعلق بانكشاف الأحداث التي تتعرض لها العين - والشيء المرئي دليله معه ، لأن الشيء المسموع دليله يؤخذ من صدق قائله ، وصدق قائله أمر مظنون ، أيكذب أم يصدق ؟ أما المرئي فدليله معه ، ولذلك قالوا : ليس مع العين أين ، أي أنك إذا رأيت شيئاً فلا تقل:أين هو ، وليس الخبر كالعيان ، فالخبر الذي تسمعه ليس كالمشاهدة ، إذن فالمشاهدة دليلها معها ، فلا يقال:دلل على أن فلاناً يلبس جلباباً أبيض وأنت تراه .

إذن فحين يريد الحق أن يؤكد قضية يقول : أرأيت . ولذلك فأنت إذا حدثت إنساناً عن انحراف إنسان آخر . قد يصدقك وقد لا يصدقك ، لكن إذا ما رأيت الإنسان يلعب ميسراً أو يشرب خمراً ثم تقول لمن حدثته من قبل : أرأيت من قلت لك عليه ، كأن الرؤية دليل . والحق سبحانه وتعالى حين يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله : « أرأيت » ننظر إلى الأمر ، فإذا كان مشهوداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يراه بذلك تكون « أرأيت » على حقيقتها ، كما يقول له :

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ ﴾

( سورة العلق )

هو صلى الله عليه وسلم قد رآه ، فتكون « أرأيت » على حقيقتها أم ليست على حقيقتها ؟ ولماذا يأتي بهمزة الاستفهام « أرأيت » ؛ على الرغم من أنه صلى الله عليه وسلم قد رأى من ينهى إنساناً عن الصلاة ولماذا لم يقل : « رأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى » ، لا ؛ لأن الحق يريد أن يؤكد الخبر بمراحل . فمرة يكون الخبر خبراً تسمعه الأذن ، ومرة يكون رؤية تراه ، ومرة لا يقول له : أنت رأيت ، ولكن يستفهم منه بـ « أرأيت » لكي ينتظر منه الجواب . وبذلك يأتي الجواب من المخاطب نفسه وليس من المتكلم ، وهذه آكد أنواع البيان وآكد ألوان التحقيق ، فحين يخاطب الحق سبحانه وتعالى بقوله : « أرأيت » نقول : أكان ذلك مشهداً لرسول الله رآه ، فتكون الرؤية على حقيقتها . فإذا كان الأمر لم يكن معاصراً لرسول الله ثم يخاطب الله رسوله بقوله :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ ﴾

( سورة الفيل )

ونعلم أن أصحاب الفيل كانوا عام ميلاده صلى الله عليه وسلم ، فهو حين

يخاطب رسوله لم يكن المشهد أمامه ، فـ « ألم تر » هنا بمعنى « أعلمت » ، ولماذا عدل هنا عن « أعلمت » إلى قوله : « ألم تر » ؟ . لأن الحق سبحانه وتعالى حين يخاطب رسوله بأمر منه فهو يوضح له : إن أخبرتك بشيء فاعلم أنى أصدق من عينك ، فإذا قال سبحانه : « ألم تر » فهذا يعنى أنك علمت من الحق سبحانه وتعالى ، وإخبار الحق ليس كإخبار الخلق ؛ لأن إخبار الخلق يحتمل الصدق والكذب ، لكن إخبار الحق لا يعنى إلا الصدق ، إذن فرؤية عينك قد تخونك ؛ لأنك قد تكون غافلا فلا ترى كل الحقيقة ، لكن إذا أخبرك الحق سبحانه وتعالى فسيخبرك بكل زوايا الحقيقة . إذن فإخبار الحق أوثق وآكد من رؤية العين وسبحانه عندما قال :

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ ﴾

(سورة العلق)

هذه مثل الأولى ، وحين قال سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ ﴾

(سورة الفيل)

كأنك تراهم الآن ، فـ « ألم تر » تعنى كأن المشهد أمامك .

إذن فوسائل تأكيد الأشياء : خبر من خلق يحتمل الصدق ويحتمل الكذب . هذه واحدة ، ورؤية من خلق تحتمل أنها استوعبت كل المرئى أو أحاطت ببعضه ، أو خبر من خالق أحاط بكل شيء ، فيجب أن يكون الخبر من الخالق أوثق الأخبار فى تصديقهم .

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب » جاءت هذه الآية ورسول الله يعاصره قوم من اليهود . ورأى منهم بالفعل أنهم أوتوا نصيباً من الكتاب ، لأنهم أهل كتاب ، ومع ذلك يشترون الضلالة ؛ ولا يقولون الحق ، فيكون هذا أمرا مشهديا بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وحينما أرسل الله محمداً جعله ختاماً للأنبياء وختم به ركب النبوة ، وهذا يعنى : أن النبوة كان لها ركب . وفى كل عصر من العصور يأتى نبى على مقدار اتساع الحياة ، وعلى مقدار التقاء الكائنين فى الحياة ، وعلى مقدار الداءات والأمراض التى تأتى فى المجتمع ، ولكن الله علم أزلاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيأتى فى فترة ورسالته ومنهجه ينتظم ويضم كل قضايا الزمن إلى أن

تقوم الساعة . وهو زمن يعلم الله أن فوارق المواصلات فيه ستنتهي ، وفوارق الحواجز فيه ستنتهي ، فيحدث الخبر في أدنى الشرق وأعلاه فتسمعه في أدنى الغرب وأعلاه ، والخبر في الغرب تسمعه في الشرق . والداء يوجد مرة في أمريكا وبعد يوم أو يومين يوجد في أي بلد من البلاد .

إذن فالمسافات انتهت ، وجعلت المواصلات العالم كقطعة واحدة ، إذن فالداءات في المجتمع القديم لعسر الاتصال كانت تنعزل انعزالاً إقليمياً وكل داء في جماعة قد لا يصل إلى الجماعة الأخرى ، فهؤلاء لهم داء لا يصل إلى الجماعة الأخرى ، لذلك كان الحق يرسل رسولاً لكل جماعة ليعالج داءاتها،لكن إذا التحم العالم هذا الالتحام ؛ فلا بد أن يأتي رسول واحد جامع للناس جميعاً ؛ لأن قضايا الداءات ستكون واحدة . ونحن نرى الآن كل يوم عجبا ، كلما تحدث حادثة هناك نجدها عندنا .

إذن فلا بد أن تتوحد الرسالة . وحين تتوحد الرسالة فلا يأتي رسول ليستدرك بعد ذلك ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم جاء خاتماً ؛ ولذلك أخذ الله العهد على كل رسول أن يبشر قومه بأنه سيأتي رسول خاتم ليكون عند أهل كل ديانة خَلْفية تطمئنهم على أنه إذا جاء رسول ، فقد عرفوا خبر مقدمه ويقولون : لقد قالت لنا رسلنا ؛ ولذلك قال الحق :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَٰقَ النَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ﴾

(من الآية ٨١ سورة آل عمران)

ثم قال :

﴿ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

(من الآية ٨١ سورة آل عمران)

راجع أصله وخرّج أحاديثه فضيلة الدكتور / أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

إذن فرسول الله مشهود له من كل الرسل ؛ ولذلك أكد صلى الله عليه وسلم ديانات كل الرسل . وجاء دينه بديانات كل الرسل ؛ لأنهم معه على منهجه الذى نزل به ، والذين يلتحمون بالإيمان بالسماء بواسطة الرسل السابقين ؛ إذا ما جاءهم خبر رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فقد يجعلهم تعصبهم لدينهم ينصرفون عنه ، فأعطاهم الحق الخميرة الإيمانية وأوضح لهم : سيأتى رسول خاتم فتنبهوا يا كل الأقوام إذا ما جاء الرسول الخاتم فلا بد أن تؤمنوا به . وكان عندهم فى كتبهم الدلالات والإخبارات . إذن فالله أعطاهم نصيبا من الكتاب . وانظروا إلى دقة الأداء القرآنى : « ألم تر » يا محمد « إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب » جاء هذا القول وهو يحمل لهم عذرهم إن فاتهم شىء من الكتاب ؛ لأنه سيقول فى آية أخرى :

﴿ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾

(من الآية ١٣ سورة المائدة)

وماداموا قد نسوا فهم معذورون ، لكن من عندهم كفاية فى العلم من الذين « أوتوا نصيباً من الكتاب » ، كان المفروض فيهم أن تكون آذانهم مستشرفة إلى صوت داعية الحق الخاتم ، وهذا كان معروفا لهم من قبل ؛ لذلك يقول لنا ربنا :

﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

فهم كانوا يقولون لعبدة الأوثان من العرب : نحن فى انتظار النبى الخاتم الذى سيرسله الله لنسبقكم إلى الإيمان به ، فإذا ماسبقناكم إلى الإيمان به وظللتم على كفركم ، سنقتلكم به قتل عاد وإرم . إذن فهم معتصمون بالإيمان بالسماء ، فقل لى : إذا قالوا هذا القول ، وهم معروفون أنهم أهل كتاب فلماذا كفروا بالرسول صلى الله عليه وسلم ؟ إن كفار قريش لم يقولوا : إننا أهل كتاب ، بل كانوا على فترة من الرسل ، فكان المفروض أنه إذا ما جاء الرسول تسابق أهل الكتاب إلى الإيمان به لأنه سبق لهم أن توعدوا به العرب . لقد أعطاهم الله منزلة عالية لكنهم من لؤمهم لم ينتفعوا بها ؛ فيقول الحق :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة الرعد)

لقد جعلكم الحق شهوداً على صدق الدعوة ، هو شاهد وأنتم شهود ، وهذه منزلة كبيرة ، لكنهم لم يلتفتوا إلى تلك المنزلة وركبوا سفينة العناد الفارقة :

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ﴾

( من الآية ٨٩ سورة البقرة )

ولكن يجب أن نفطن إلى أن الحق سبحانه وتعالى حينما يرسل قضية عقدية في الكون فيخالفها مخالف يظن أنه يضار الله ، نقول له : لا.أنت تفعل ذلك لشهوة في نفسك . لكن الحق سيجعلها لنصرة الدين الخاتم ، وتكون أنت مغفلاً في هذا الموقف . فإياك أن تظن أنك قادر أن تصادر مرادات الله حين كذبت بمحمد وجعلك ربنا تقول هذه الكلمة للمشركين من قريش ، فانظر ماذا ستفعل هذه الكلمة ؟ . ولكي تعرف أنت بإنكارك ماذا فعلت للإيمان . أنت فهمت أنك صادمت الإيمان . لا . أنت أيدت ونصرت الإيمان لكن بتغفيل ! وعليك وزر .

فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأعلن دعوته من ربه . قال العرب المشركون الوثنيون : إن هذا النبي هو الذي توعدتنا به اليهود ، فهيا نسبق إلى الإيمان به قبل أن يسبقونا .

إذن أخدموا الإيمان أم لا ؟ . . لقد خدموا الإيمان . إذن فلا يظنن عاص أنه يقدر أن يطفىء نور الله ، لأن الله يتم نوره ولو كره الكافرون . ومثال لذلك عندما غيّر ربنا القبلة ويوضح : يا محمد أنا أعرف أنك مستشرف ومتشرق إلى أن تتوجه إلى الكعبة ، وأنا قد وجهتك أولاً لبيت المقدس لمعنى . ولكن أنا سأوجهك للكعبة وعليك أن تلاحظ أنني حين أوجهك إلى الكعبة سيقول السفهاء « وهم اليهود » :

﴿ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُواْ عَلَيْهَا ﴾

( من الآية ١٤٢ سورة البقرة )

فهم يتساءلون : ما الذي جعلهم يتركون القبلة التي كانوا عليها ؟ فإن كانت قبلة إبراهيم هي الكعبة فلماذا لم يتجه إليها من أول الأمر ؟ هم سيقولون هذا الكلام . ونزل به قرآن يتلى ويسجل . ومن تغفيلهم ساعة تغيرت القبلة قالوا ذلك القول أيضاً ، ولم يلتفتوا إلى أن الحق قال من قبل :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة البقرة)

فعلى الرغم من ذكائهم إلا أنهم قالوا هذا الكلام ، مما يدل على أن الكفر مظلم والكافر فى ظلام فلا يعرف كيف ينصر نفسه . وجعل الله الكفر وسيلة للإيمان . فلو أنهم كانوا أذكياء بحق وأصحاب بصيرة لكانوا بمجرد أن قال القرآن : « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها » ، لجمعوا بعضهم وقالوا : القرآن قال : إننا سنقول كذا وكذا ، فهيّا لا نقول كى يكون القرآن غير صادق . لكنهم لم يقدروا على ذلك . إذن فالكافر مغفل . هم يظنون أنهم بكفرهم يطمسون الإيمان بالله . لا ؛ لأن الله جعل الكفر وسيلة للإيمان ، والحديث الشريف يقول :

( إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر )[1] .

فالحق سبحانه وتعالى يبيّن : هؤلاء أوتوا نصيباً من الكتاب ، وكان المفروض لمن أوتوا نصيباً من الكتاب أن يكونوا أول من آمن . لكنهم لم يؤمنوا ، هذه أول مرتبة ، وليتهم اقتصروا فى الشرّ على هذه ، وبذلك تقف المسألة وتظل معلقة بهم ، ولكنهم يشترون الضلالة ، ليس فقط فى نفوسهم بل يريدون أن يُضلوا غيرهم ، وهذه هى المرحلة الثانية ، فهناك من يَضِل فى ذاته وهو حرٌ ، لكن أن يحاول إضلال غيره فهذا كفر مركب . أنت ضَلَلْت وانتهيت ، فلماذا تريدنى أن أضل ؟ لأن الضال أو المنحرف أو الذى ليس على طريق مستقيم إنما يعرف الطريق المستقيم جيداً . ولكن الصعوبة فى أنه لا يستطيع أن يحمل نفسه عليه . فإذا ما وجد إنساناً مؤمناً فهو يستصغر نفسه ، « لماذا آمن هو وأنا لم أؤمن » ؟

إذن فلا أقل من أن يحاول جذبه فى صفه حتى لا يكون هو المنحرف الوحيد ، فإذا رأيت مثلاً فى بلد من البلاد بعض المنحرفين ، ويرون واحداً مستقيماً فهم يتضاءلون أمامه ، وينظرون إليه نظرة حقد ، ويقولون : لماذا هو مستقيم ؟ لا بد أن نسحبه للانحراف .

---

(١) رواه البخارى .



ولذلك يجب على المستقيمين أن ينتبهوا جيداً إلى أن شياطين الإنس لن تتركهم فى طاعتهم ، بل إنهم سيحاولون أن يستميلوهم ، لأنه يحزّ عليهم أنهم لا يقدرون على أنفسهم ويحزّ فى نفوسهم أكثر أن يجدوا بشراً مثلهم قد قدر على نفسه واستقام . ولذلك يقولون : هيا نكون كلنا معاً فى المعصية حتى لا يرفع أحد رأسه على الآخر. فلنكن كلنا كذابين حتى لا يوجد فينا واحد صادق يذلنا . والكذاب كلما رأى الصادق يشعر أن هناك حربة تنخز فى قلبه !! والخائن ساعة يرى الأمين تكون الرؤية حربة تنزل فى قلبه ، فيريد أن يكون الكل مثله ، هذه معنى « يشترون الضلالة » .

والحق يقول لهم : أنتم أحرار بشرائكم الضلالة وستجدون الجزاء فى النار ، فلماذا تريدون أن تضلوا الناس ؟ إذن فيجب أن ينتبه أهل الطاعة إلى هذا الأمر ، وعندما يستهزىء أحد من طاعتهم فعليهم أن يلتفتوا إلى قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴾

( سورة المطففين )

وهذا ما يحدث إذا رأى بعض المنحرفين واحداً يذهب إلى المسجد أو يصلى ، يقولون له : « خذنا على جناحك » ويسخرون منه ويستهزئون ، لأنهم ساعة يرونه مقبلاً على الطاعة وهم غير قادرين على أن يكونوا طائعين يتضاءلون أمام أنفسهم ؛ لذلك يريدون أن يكون الكل غير طائع ، وهذه هى الصورة التى نراها الآن ، وعندما يقابل هؤلاء أهاليهم يتضاحكون بسرور من أنهم ضايقوا مؤمناً ، ويقولون : قابلنا مؤمناً واستهزأنا به ، ويتابع الحق :

﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

( سورة المطففين )

فالله سبحانه وتعالى يوضح لنا : أن هؤلاء المستهزئين بالدين يتهمون المتدينين بأنهم على ضلال . فإياكم أن تيأسوا أمام هؤلاء ، إياكم أن تهزموا أمام هؤلاء لأنى سأنتقم عياناً من هؤلاء ، وذلك يأتى يوم الآخرة ويقول الله بعد أن ينزل بهم النكال والعذاب :

﴿ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ ( سورة المطففين )

فالحق يتساءل ليأتي الجواب على ألسنتنا ، والسؤال هو : هل قدرنا أن نجازيهم على ما فعلوه فيكم ؟ فاسخروا أنتم منهم ، واضحكوا عليهم كما سخروا منكم فى الدنيا .

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب » وهم اليهود . و « أوتوا نصيباً من الكتاب » أى أنهم لم يأخذوا بكل الكتاب بدليل أنهم نسوا حظاً مما ذكروا به ، « ويشترون الضلالة » ، وساعة تسمع كلمة « يشترى » اعرف أن هناك معاوضة ومبادلة ، سلعة وثمنا ، فيشترون الضلالة بماذا ؟ ماذا سيدفعون ؟ الحق يقول فى آية أخرى :

﴿ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ ﴾

(من الآية ١٦ سورة البقرة)

أى أنهم دفعوا الهدى ثمناً وأخذوا الضلالة سلعة ، وعادة ما ندفعه يضيع من يدنا ، وما نشتريه نأخذه لنا . فحين تشترى سلعة بجنيه . فالجنيه يضيع ، بعد أن كان معك أولاً ، فحين يقول : « اشتروا الضلالة بالهدى » فهل كان معهم هدى وقدموه وأخذوا الضلالة ؟! نعم ، كان معهم هدى الفطرة . فكل واحد عنده هدى الفطرة .

إياك أن تظن أن العقل الواعى ينتظر رسولاً ليدله على الله ، إنما هو ينتظر رسولا ليبلغه مرادات الله منه ، ذلك أن الإيمان بالله أمر من أمور الفطرة ، فالإنسان عندما يتفتح وعيه يجد أشياء فى الكون تخدمه ، خدمة مستقيمة رتيبة ، ولا تتخلف عن خدمته أبداً ، هناك شمس تطلع كل يوم ، وهواء يمر ، أرض عندما تزرعها تعطيك خيراً كثيرا . ألك قدرة على شىء من هذا ؟ هل ادعى إنسان مثلك أن له قدرة عليه ؟ كل هذه الكائنات أنت تطرأ عليها ، ولم تأت بها .

وعندما يولد الإنسان ويرى كل هذه النعم موجودة . ألا يؤمن بأنها من عطاء خالق ؟ الإنسان فوجىء عندما ولد بوجود النعم . وأيضاً آدم عندما خلق فوجىء بالنعم موجودة ، إذن فهو قد طرأ عليها ، بالله مادام هو قد طرأ عليها ألا يفكر من الذى أقام هذه النعم له ؟ كان لابد أن يفكر من الذى صنع له كل هذه النعم ، وضربنا من

قبل مثلاً بمن انقطعت به الوسائل وهو في الصحراء ولم يجد ماء ولم يجد طعاماً، ثم يئس فنام ، ثم استيقظ فوجد مائدة عليها أطايب الطعام ، بالله قبلها يأكل ألا ينظر ويفكر ويقول في نفسه : من الذي أعدّ وأقام تلك المائدة ؟ أنت ـ إذن ـ وارد على الكون بخيره كله ، ولا أحد قال لك : أنا الذي فعلته ، لا أبوك ولا جدك ولا جد جدك قال هذا ، فلابد أن تنتبه إلى أن له خالقاً .

إذن فالذين اشتروا الضلالة بالهدى ، أكان معهم هدى فقدموه وأخذوا الضلالة ؟ ! نعم كان معهم هدى الفطرة ، ولذلك حين سُئل الإمام علي ـ كرّم الله وجهه ـ : أعرفت ربك بمحمد أم عرفت محمداً بربك ؟

قال : لو عرفت محمداً بربي ما احتجت إلى رسول ، إذن فلايصلح أيضا أن يقال لأحد « عرفت ربك بمحمد »،لذلك قال علي كرم الله وجهه : ولكني عرفت ربي بربي ، وجاء محمد فبلغني مراد ربي مني . إذن فقوله : « الذين اشتروا الضلالة بالهدى » ماذا فعلوا ؟ باعوا هدى الفطرة واشتروا الضلالة . وهنا يقول الحق : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة » .

ولم يأت بـ « الهدى » هنا ، وهذا يدل على أن الفطرة انطمست عندهم انطماسا بحيث لم يقدموا ثمناً للضلالة من الهدى .

« ويريدون أن تضلوا السبيل » الإرادة هي : أن يرجح الشخص المختارُ حكماً على حكم ، ومثال ذلك : أنت أمامك جوربان مثلا ، فلك أن تختار واحداً منها ، لكن لو كان أمامك جورب واحد فإرادتك لاترجح . إن الإرادة ترجح اختيارا على اختيار ، وما معنى « تضلوا »؟ الضلال يطلق بإطلاقات متعددة ، فحواها كلها أن هناك أمراً من الحق ليس على بالك ، فهل يحدث ذلك لأنك نسيته أو عرفته وتعمدت أن تتركه ؟ . فالذي نسي هذا الأمر معذور،لكنّ هناك إنسان آخر يعرف هذا الأمر لكنه تعمد أن يتركه ، إذن فالضلال يطلق مرة على النسيان كما في قول الحق :

﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

فالضلال هنا نسيان لكن هناك من يضل لأنه يفتقد المنهج الحق ويتشوف ويتطلع إليه ليتبعه ، كما فى قوله :

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝ ﴾

(سورة الضحى)

أى أن المسائل متشعبة على الإنسان فيرى هذا وذاك ، فأوضح الحق لك : لاتتعب نفسك لأنى سأعطيك السبيل المستقيم . إذن فالضلالة لها معان متعددة ، وفحواها جميعاً أنها لاتوصلك إلى الغاية ، والحق سبحانه وتعالى حينما يعرض قضية إيمانية عقدية معنوية يستعمل فيها الألفاظ التى يستعملها الناس فى الكونيات ، ولذلك فما هو السبيل؟ . السبيل ـ عندنا ـ هو الطريق ، وكلنا حتى غير المؤمنين يعرفون أن الطريق يُصنع ليوصل إلى غاية ، ولكن لابد أن نعرف الهدف أولاً وبعد ذلك نرصف الطريق ونعبّده ، ففيه فرق بين السبب الدافع والواقع .

نحن قبلما نرصف الطريق نرى إلى أين يذهب؟ إذن فالغاية أولاً وبعد ذلك نلتمس أقصر طريق يوصلنا إلى المطلوب . وعندما نكتشف أقصر طريق يوصلنا للمطلوب نمهده ونعبّده لكيلا نتعب الناس ، إذن فالسبيل هو : الطريق الموصل إلى الغاية . ولذلك أوضح لنا الحق أن الطريق إلى الإيمان مستقيم كى لا يأخذ مسافات ، فالخط المستقيم هو أقصر الخطوط .

إننا لا بد أن نعرف الغاية قبل أن نعرف السبيل إلى الغاية . وآفة الدنيا وأهلها أنهم يعيشون فيها ولايعرفون غاياتهم النهائية ، إنما يعرفون غاياتهم الجزئية ، فالطالب يريد أن يتعلم كى يكون موظفا ، لكى يتزوج ويقيم أسرة ، والتاجر يتاجر لكى يعمل كذا ، هذه هى الغايات الجزئية ، والذكى هو من لايذهب للغايات القريبة المنتهية ، بل ينظر إلى الغايات الأخيرة ؛ لأن الناس تختلف فى الغايات المنتهية ، فواحد يعيش خمسين سنة ، وآخر يعيش ستين عاماً ، وثالث يعيش لمدة سنة ، إذن فلابد أن تنظر إلى الغاية التى سيذهب لها الكل ، وآفة الناس أنها تعمل للدنيا ، يعنى للغايات القريبة ، برغم أن « الدنيا » تعنى الأقل والأتفه ، ولذلك اسمها « الدنيا » ، ومادامت « دنيا » إذن فهناك « عليا » .

إن تعب الناس يأتي من أنها تعمل للغايات الدنيا ، لذلك نقول لكل إنسان : انظر الغاية العليا التي سيكون الكل شركاء فيها ، والكل لابد أن يصل لها . فإذا ما عرفنا الغاية العليا نجونا من إرهاق قصر النظر والغرق في الغايات المحدودة ، مثلاً : أنت تبعث ابنك ليتعلم من سن الحضانة ثم إلى الروضة ثم الابتدائي ثم الإعدادي ثم الثانوي ثم التعليم العالي ثم يتخصص في مجال معين في التعليم العالي ، وتصل سنوات عمره إلى العشرين سنة ليتخرج ويتوظف ويقدر أن يعيش بكده وعرقه،والأب يعمل لهذه الغاية ، وقد لا يصل الابن إلى الوظيفة ، وقد يُتعب الابن والده ولا يكمل تعليمه وبذلك تفلت منه الغاية . لكن نحن نريد الغاية التي لا تفلت ، فأنت الآن تعيش في أسباب خلقها لك الحق ، فاجعل غايتك أن تعيش مع الحق .

إنك في الدنيا تعيش مع الأسباب التي خلقها لك الحق ، لكنك في الآخرة ستكون مع الحق نفسه . أنت في الدنيا تعيش بالأسباب ، ولكنك تعيش في الآخرة بالمسبب ، ومهما ارتقت أسبابك . فأنت لن تستطيع أن تصل إلى مستوى رفاهة الآخرة . صحيح أنه إذا ارتقت حياتك في الدنيا فقد تضغط على زر في الحجرة ويأتيك فنجان قهوة ، أو تضغط على زر فيأتيك الأكل ، ولكن قل لي مهما ارتقت الحياة أيوجد ارتقاء بحيث إذا خطر الشيء على بالك يأتيك ؟ لا يمكن ، وهذا ما سيكون لنا في الآخرة ، إذن فهذه هي الغاية الحسنة ، ونحن نعيش في الدنيا مع أسباب الله الممدودة لنا ، أما في الآخرة فسوف نعيش مع الله ولذلك لوضح سبحانه : سأعطي المؤمن والكافر الأسباب في الدنيا ، فالكافر عندما يزرع يجد نتاجاً ، وعندما يبحث في الكون وينظر أسراره فالأسرار تتكشف له ، لأن الأسباب خلقها الله لمن يأخذ بها سواء أكان مؤمناً أم كافراً . لكن المسبب لا يذهب له إلا من آمن به ، أما الكافر فقد آمن بالأسباب فأخذ الأسباب ، ولم يمنعها الله منه:

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الشورى)

إذن فهل غايتك أن تبقى مع الأسباب أو تذهب إلى المسبب ؟ انظر إلى غايات

الدنيا القريبة ، ستجد أنها قد تنتهي قبل أن تصل إليها ويكون تعبك قد ذهب هباء . ولذلك أخفى الله الموت وأسبابه وزمنه كي يختبر الإنسان ، فهناك من يحقق كل ما رغب فيه وفي آخر الأمر تنتهي المسألة بالموت ، وهو قد أخذ الحياة لأنه لم يؤمن بالمسبب ، هب أنه أخذ الدنيا كلها عنده ، نقول له : سيأتيك الموت ، يعني إما أن تفارق أنت النعمة وإما أن تفارقك النعمة ، ولكن في الحياة الآخرة أنت لا تفارق النعمة ولا النعمة تفارقك.فهذه - إذن - هي الغاية الحقة ، غاية العقلاء . ومتعتك في دنياك كما قلنا على قدر أسبابك.أما متعتك في الآخرة فهي على قدر المسبب ، وسبحانه لا يقادر قدره ولا أحد يماثله في فعله . والعاقل هو من ينظر إلى الغاية البعيدة .

إذن فالسبيل لا يمكن أن يكون طريقاً إلا إذا علمت الغاية ، والذي يجعل الناس تتعب في الدنيا ، أنهم لا يعرفون إلا الغايات القريبة ، ولذلك سماها « الدنيا » ولا يوجد اسم أدنى من ذلك لها ، وكان يجب أن يوحي هذا الاسم بأنها فانية وهناك باقية . إذن فقبلما ترسم السبيل لابد أن تحدد الغاية . وبعدما تحدد الغاية تختار السبيل الذي يوصلك للغاية ، وهكذا نعرف أن هناك فرقا بين واقع ودافع ، الشيء الدافع هو أن تنصب الغاية أولاً وتحددها ، فالتلميذ يجتهد كي ينجح ، وينجح لكي يأخذ حظه في الحياة ، وهذه الغاية لابد أن توجد في ذهنه قبلما يتعلم ، وعندما يتصور النجاح ولذته في ذهنه فهو يبدأ في المذاكرة ، وعندما يذاكر يصل إلى الغاية وهي النجاح ، فالغاية نوعان : غاية دافعة ، وغاية واقعة ، فالغاية الدافعة تسبق الطريق ، والغاية الواقعة تتأخر عن الطريق ، ومن الذي يحدد الغاية ؟ .

إن الذي يحدد غاية كل شيء هو من صنعه ، وغايتك أنت من الذي يحددها ؟ أنت تحدد الغايات الدنيا ، أما الغايات العليا فعليك أن تتركها للأعلى ليحددها وهو الله . ومادام هو سبحانه الذي يحددها لأنك صنعته وخَلْقه ؛ لذلك تسأله : أنت سبحانك الذي تعلم موقعها فهيء لنا الطريق الذي يوصلنا لها . لابد إذن من الإيمان إذا ما كانت الغاية هي أن تعيش مع الحق ، والسبيل هو المنهج :

﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة الأنعام)

أي أن سبلكم أنتم لا توصلكم إليّ ، لأنكم حددتموها بغاياتكم ، أمَّا أنا فقد

حددت السبيل بغايتي فمن أراد أن يصل إليّ فلينظر إلى طريقي . وكلمة « السبيل » و« الطريق » كلها أمور حسية ، والحق يستعملها لنا ليدلنا على المعاني العقدية والمعاني المعنوية يوضحها - سبحانه - بأمور حسية أمامنا ، وعندما توجد في مفترق طرق وتريد أن تصل إلى المنطقة الفلانية . فانحرافك بمقدار ملليمتر واحد في بداية الطريق ، يبعدك عن الهدف ، وكلما امتد بك السير اتسع المشوار وتبعد المسافة ، فأنت تتوه ، ونمثل لهذا بشيء بسيط جداً : كلنا نركب القطارات ، والقطارات تسير على قضبان مستقيمة . فإذا أردنا أن نحول القطار فنحن لا نرفعه ونضعه على قضيب آخر ، بل نأتي بتحويلة لا تتجاوز اثنين من الملليمتر ونقربها إلى حد الالتصاق في القضيب الأصلي ، وهذا ما يعمله « المحولجي » ، فينحرف القطار لينتظم الخط وليصل إلى المحطة المطلوبة .

ولفتنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك بما رواه سيدنا حذيفة - رضي الله عنه - حينما قال : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثين قد رأيت أحدهما ، وأنا أنتظر الآخر ، حدثنا : أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال - أي أن الإيمان فطري - ثم نزل القرآن ، فعلموا من القرآن وعلموا من السنة .

ثم حدثنا رسول الله عن رفع الأمانة قال :

«ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت - وهو اللسعة التي توجد أثراً على الجلد - ثم ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل أثر المجْل» ( والمجل هو أثر الجمرة التي تظل مدة طويلة على جلد الإنسان فتسبب ورماً فيه مياه - كجمر دحرجته على رجلك فنفط - أي انتفخ - فتراه منتبراً وليس به شيء ) فيصبح الناس يتبايعون فلا يكاد يوجد أحد منهم يؤدي الأمانة حتى يقال: « إن في بني فلان رجلاً أميناً »[1] .

ويستمر سيدنا حذيفة قائلاً :

ولقد مر عليّ زمان وما كنت أبالي أيكم بايعت لئن كان مسلماً ليردنه عليّ دينه ،

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه وأحمد .

ولئن كان نصرانياً ليردنه على ساعيه ـ أى المحتسب ـ وأما الآن فما كنت أبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً .

إن الإيمان فطرى . إنّ قصارى ما يعطيك هذا الإيمان الفطرى أن وراء هذا الكون الدقيق قوة عظمى ؛ فالكون المنظم ، الرتيب ، الذى لا يدخل تحت طاقتك ولا تحت قدرتك ، هذا الكون يسير على أحسن نظام . والقوة العظمى القادرة التى وراء ذلك الكون تتصف بالقدرة ، وبالعلم ، وبالحكمة ، وبكل صفات الكمال .

لكن أيعطيك فكرك وعقلك اسم هذه القوة ؟ لا يمكن أن يعطى العقل اسم هذه القوة . أيعطيك فكرك وعقلك مرادات هذه القوة ؟ إنك لا تستطيع أن تعرف مرادات هذه القوة إلا برسول ترسله ليبلغ عنها . والرسول عندما يأتى يقول : إن القوة التى تبحثون عنها ، والتى آمنتم بها إيماناً مجملاً اسمها « الله » . فلا بد أن تصدق الرسول . فالعقل لا يقول لنا اسم القوة الخالقة . ولكن الذى يقول لنا اسم هذه القوة هو البلاغ ، ويعطينا الحق هذا البلاغ من خلال الرسول بكل مراداته من وجودنا .

وهذا هو أقصر طريق للوصول إلى الحق بعيداً عن تعقيدات الفلسفة أو تعقيدات المنطق ، وسفسطة الجدل ، هذا الطريق الذى يثبت أن من يعبد أى قوة غير الله لا حق له فى مثل هذه العبادة . فالذى يعبد الشمس مثلاً هل يستطيع أن يقول لنا ما هو منهج الشمس الذى تطلبه من الإنسان ؟ وماذا قالت لمن يعبدها جزاءً للفعل الحسن أو عقاباً على الفعل السيىء ؟ ماذا تستطيع هذه الشمس أن تفعل لمن لا يعبدها ؟ . إنها لا تملك ثواباً ولا عقاباً ، ولا منهج لها ، وإله بلا منهج لا يصلح أن يكون إلهاً . فالإله لا بد له من منهج يدل الناس على صواب الفعل وينهى عن سوء الفعل ويملك سلطان الثواب والعقاب . والشمس لا تملك منهجاً تعطيه،وكذلك الحجر أو القمر .

إذن فهذه الأشياء مخلوقة بدورها من قبل خالق ولا تصلح أن تكون آلهة . ووجود الرسل المبلغين عن الله دليل على صدق الدعوة . فالحق سبحانه وتعالى يعطينا إيماناً بوجوده من خلال المنهج . . ونحن قبل البلاغ نعرف أن هناك قوة خالقة لا نعرف

اسمها ولا مرادها ، ولذلك فعندما يأتي الرسول بالبلاغ فهذه رحمة من الله بالخلق . أما من يحاول أن يخطط بعقله لحياته بدون الرسول فنقول له : أنت تصيب نفسك وروحك بالتعب ولن تصل إلى شيء . ونضرب هذا المثل دائماً ـ ولله المثل الأعلى ـ هب أننا نجلس في غرفة والباب مغلق ثم طرق الباب طارق . هنا نتفق نحن الجلوس في الغرفة في أن وراء الباب طارقاً .

ولكن إذا أردنا تحديد هذا الطارق وتعيينه فسنختلف . فيقول قائل : إنه رجل . . ويقول آخر : لا.إنه امرأة . ويقول ثالث : لا.إنه طفل . ويقول رابع : هذا بشير . ويقول خامس : هذا نذير . ويقول سادس : إنه القادم لنا بالقهوة . ويقول سابع : إنه رجل مكلف بالقبض علينا .

هكذا نتفق على أن طارقاً بالباب ونختلف في تحديد « مَن الطارق » . وهكذا الكون ، الكون وراءه قوة هائلة وعندما يحاول الإنسان أن يتول اسم هذه القوة بعقله أو مرادات هذه القوة فهذا يسبب الخلاف . ولكن حينما ترسل القوة عن نفسها رسولاً ليقول : إن القوة الخالقة اسمها الله ومرادات الله كذا ، ففي ذلك حسم للخلاف .

إن الذي أرهق الفلاسفة ووصل ببعضهم إلى دهاليز التيه ، هو أن بعضهم لم يكتف بتعقل القوة التي خلقت الكون . بل إنهم أرادوا أن يتصوروا القوة وما مياتها ومراداتها . ونقول : إن نظرة الفلاسفة إلى الخالق لا تصلح ؛ لأنهم بتلك النظرة يظلون في التيه ، ولكن البلاغ عن طريق رسول هو الذي يحسم هذه المسألة . والحديث الذي رواه لنا سيدنا حذيفة عن الأمانة يصور لنا مهمة الإيمان وكيف يتعلم المؤمن من القرآن والسنة ، وعندما يهمل هذا العلم ، فما الذي يحدث ؟

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يمثل لنا مراحل فقدان الأمانة . وينبهنا : احذروا من أن تتسلل الانحرافات بنزمة قليلة ، ثم إلى أخرى أكبر منها ، ثم إلى ثالثة أكبر وأوسع . وشرحنا ذلك بمثل الانحراف المقصود لقطارات السكك الحديدية .

إن قوله الحق سبحانه : « يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل » كى لا يتفردوا ـ وحدهم ـ بالضلال ، والحق سبحانه يعطينا مناعة ضد كلامهم ، فهم لهم حظ من علم الكتاب وهذا قد يجعلنا نحسن الظن بأن لهم صلة بالسماء لأنهم أتباع رسل ، فسبحانه يوضح لنا : هؤلاء يريدون أن تضلوا السبيل ويتخذوا من نصيب الكتاب الذى عندهم وسيلة كى يضلوكم .

وفى عصرنا نجد أن أعدى أعداء أى عقيدة ليسوا أعداءها الظاهرين وإنما أعداؤها من أنفسهم . لأن عدوى الظاهر الكافر يجابهنى وأنا واثق أنه يريد أن يدس لدينى ويدلس ويحرف فيه ، لكن عندما يكون هناك مسلم مثل يأتى ليكلمنى فربما آخذ كلامه على أنه مسلم ؛ ولذلك فخصوم الإسلام يئسوا أن يواجهوا الإسلام مواجهة صريحة ؛ ولذلك نجد الغرب قد توقف الآن عن مسألة الاستشراق ، وما بقى من الاستشراق فهذا هو القديم . وكان المستشرق من هؤلاء يؤلف كتاباً ؛ ساعة يقرأه المسلم قد يقول : إنه رجل يعمل على خدمة العلم وعلى خدمة الثقافة ، وخدمة سنة رسول الله . وقد يكتفى هذا المؤلف بأن يدس فى الكتاب الواحد فكرة واحدة بعد أن يجعل القارىء يثق فيه .

وعندما علموا أننا فطنا لهذا دخلوا علينا بالمستغربين . وهم أناس منا ذهبوا إلى الغرب فأخذوا الداءات من هناك وجاءوا فبثوها فى مناهج تعليمنا ، وفى برامجنا ، وفى وسائل الإعلام ، وفى الصحافة ، والواحد من هؤلاء المستغربين يفعل ذلك وهو مسلم ، فيكون على ثقة ، ووجد الغرب أن أيسر طريق لهم الآن أن يدخلوا إلينا عن طريق بعض المسلمين الذين أوتوا نصيباً من الكتاب ؛ لأن الإنسان سيكون مطمئناً إلى أن هؤلاء مسلمون ؛ فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا : أن خصومك الظاهرين أهون عليك من خصومك المنسوبين إلى دينك ؛ لأن هؤلاء يدخلون عليك بالثقة الأولى ، ثقة انتسابهم للإسلام ؛ ولذلك يوضح لنا ربنا هذا الأمر لأنه قد يتعب ويصيب المؤمنين بالعنت لذلك يقول : « أوتوا نصيباً من الكتاب » وهم يعيشون على هذه .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴾ (٤٥)

فقد يكون عندكم علم بالأعداء فيقال : أنتم عالمون بأعدائكم . لكن الله أعلم بالأعداء جميعا؛ لأنه قد تكون لك عداوة بينك وبين نفسك ، أو عداوة من زوجتك ، أو عداوة من أولادك أو كل هذه العدوات جميعها أو بعضها . وهؤلاء في ظاهر الأمر لا يمكن للإنسان أن يتبين عداوتهم جميعا ، لكن الله أعلم بهم وبما يخفون ؛ لذلك يقول : « والله أعلم بأعدائكم » .

وجاء بها بعد قوله : « ويريدون أن تضلوا السبيل » أي مخافة أن تقول : إن هؤلاء أهل كتاب أو مسلمون مثلا وكذا وكذا . ومادام الله هو الأعلم بالأعداء . فهو لن يخدعنا ولن يغشنا ، فيجب أن ننتبه إلى ما يقوله الحق من أنهم أعداؤنا ، ويقول بعدها : «وكفى بالله وليًّا» وحين يقول هذا ، فالقول يعني أنك لا تريد وليًّا بعد ذلك ، كما يقولون : كفاني فلانٌ ؛ أي أنك قد تحتاج إلى هذا وهذا ثم تقول : لكنَّ فلاناً عرفته فكفاني عن كل ذلك ، أي لا يحوجني إلى أحد سواه ؛ لأنني أجد عنده الكفاية التي تكفيني في كل حركة حياتي .

«وكفى بالله وليًّا» . . نعم كفى به وليًّا لأن غيره من البشر إنما يملكون الأسباب ، والحق سبحانه وتعالى هو الذي خلق الأسباب ، فيملك ما هو فوق الأسباب . ولذلك يقول مطمئناً لنا :

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾

( سورة الطلاق )

و« الولي » دائماً هو من يليك مباشرة أي أنه قريب منك . « وكفى بالله نصيرا » إذن فهناك قريب ، وهناك أيضا نصير ، فقد يكون هناك من هو قريب منك ولا ينصرك ، لكن الله ولي ونصير ، فمادامت المسألة مسألة معركة « والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليًّا وكفى بالله نصيراً » ، كأن الحق ينبهنا : إياكم أن تقولوا إننا نلتمس

النصرة عند أحد ، اصنعوا ما في استطاعتكم أن تصنعوه ثم اتركوا ما فوق الاستطاعة إلى الله . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى أوضح لنا : إياكم أن تتخذوا من أعدائكم أولياء ، وإياكم أن تقولوا : ماذا نفعل ونحن ضعفاء ، ونريد أن نكون في حمى أحد ، وماذا نفعل في أعدائنا ؟ لا تقولوا ذلك؛لأن الله أعلمنا : أنا أنصركم بالرعب بأن أُلْقِيَ في قلوب أعدائكم الخوف فينهزموا من غير سبب وفيهم قوة وغلبة ، فإن لم يكن عندكم أسلحة فسأنصركم بالرعب . ومادام سينصرنا بالرعب فهذه كافية ؛ لأنه ساعة ينصرني بالرعب ؛ يلقي عدوي سلاحه وأنا آخذه ؛ ولذلك قال : اعملوا ما في استطاعتكم ، ولم يقل : أعدوا لخصومكم ما تحققون به النصر ، فهو سبحانه قادر على أن ينصرنا بالرعب :

﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة آل عمران)

ومادام ألقى في قلوب الذين كفروا الرعب فوسائلهم كلها تكون للمؤمنين وتنتهي المسألة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ ﴾

تكلم الحق فى سورة النساء عن الخلق الأول وأوضح : أننى خلقتكم من نفس واحدة وهى « آدم » وبعد ذلك خلقت منها زوجها ، ثم بثثت منهما رجالا كثيراً ونساء ، والبث الكثير للرجال والنساء لتستديم الخلافة للإنسان ، لكن كيف يأتى ذلك ؟ أوضح سبحانه : أريد مجتمعاً قوياً ، وإياكم أن يضيع فيه اليتيم . وبعد ذلك مادمت أريد استدامة هذا الاستخلاف فليأخذ الأيتام نصيباً ، وتكلم ـ سبحانه ـ عن التركة ، ثم تكلم عن السفهاء غير المؤتمنين على مالهم ، وبعد ذلك تكلم عن كيفية الزواج .

إذن فكل هذه العملية ليبقى لنا نظام حياة متكاملا ؛ لأن الخلافة فى الأرض تقتضى دوام هذه الخلافة بالتكاثر ، والتكاثر لا يؤدى مراده إلا إذا كان تكاثر أقوياء ، أما تكاثر الضعاف فهو لا ينفع . فإن كان فيكم يتيم لا بد أن تلاحظوه ، وإن كان فيكم سفيه لا يستطيع أن يدبر ماله فدبروا أنتم له ماله ، واجتهدوا لتتركوا من حركة حياتكم للناس الذين سيأتون بعدكم إلى أن تقوى نفوسهم على الحركة . وأوضح سبحانه منهاج الميراث ، وأمر سبحانه : أن تزاوجوا ، لكن للتزاوج شروطه وقد أوضحها ، ثم أعطانا المنهج العام : « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا » ، ووضح هذه الأحكام كلها .

وبعد ذلك ما الحكمة فى أنه ـ سبحانه ـ يرجع بنا مرة ثانية لليهود ؟ الحق سبحانه وتعالى يوفى الأحكام ، وإلقاء الأحكام شىء وحمل النفس على مراد الله فى الأحكام شىء آخر ، فيوضح لنا : أن هناك ناساً ستعلم الحكم لكنها لا تقدر أن تحمل نفسها عليه ، فإياكم أن تكونوا كذلك . واعلموا أن هناك أناساً عندهم نصيب من الكتاب أيضاً ، ويعلمون مثلكم تماماً ، إنما اشتروا الضلالة ، إذن فهو شرح لنا ، إنه الواقع الملموس ولا يأتينا ـ سبحانه ـ بكلام خبرى أو إنشائى ، قد تقول : يحدث أو لا يحدث ، إنه يأتيك بأحداث من واقع الكون ، وينبهنا : إياكم أن تكونوا مثلهم ، فقال : « من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه » والتحريف : أنك تأتى باللفظ الذى يحتمل معنيين : معنى خير ، ومعنى شر ، ولكنك تريد منه الشر ، مثل الذى يقول : « السام عليكم ـ والعياذ بالله ـ » هى فى ظاهرها أنه يقول : السلام عليكم ، لكنه يقول : السام ـ يعنى « الموت » ، إذن ففى اللفظ ما يلحظ ملحظ الخير ، ولكن العدو يميله إلى الشر .

ومثل هذا ما قالوه للنبي : « قالوا راعنا » وهي من المراعاة ، لكنهم كانوا يأخذونها من الرعونة ، فيأتي الأمر : اترك الكلمة التي تحتمل المعنيين . واقطع الطريق على الكلمة التي تحتمل التوجهين ، لأن المتكلم ، قد يريد بها خيراً وقد يريد بها شرّاً ، فمعنى تحريف الكلام أي أن الكلام يحتمل كذا ويحتمل كذا . والمثال على ذلك : الرجل الذي ذهب لخياط ليخيط له قباء(١) ـ وكان الخياط كريم العين ـ أي له عين واحدة ـ فلم يُعجب الرجل بخياطة القباء فقال : والله مادمتُ أفتضح بهذا الثوب الذي خاطه لي أمام الناس فلا بد أن أقول فيه شعراً يفضحه في الناس ، فقال :

خـــاط لي عمـــرو قبـــاء ليـــت عينيه ســـواء

فقوله : ليت عينيه سواء يظهر ماذا ؟ . هل يا ترى يتمنى له أن تكون عينه المريضة مثل السليمة ؟ أو يتمنى أن تكون العين السليمة مثل المريضة ؟ إذن فالكلام يحتمل الخير والشر ، ومثلما حكوا لنا أن واحداً من الولاة طلب من الخطيب أن يسب سيدنا عليًا ـ كرم الله وجهه وآله ـ وأن يلعنهم على المنبر .

فقال الخطيب : اعفني .

فقال الوالي : لا ، عزمت عليك إلاّ فعلت .

فقال له الخطيب : إن كنت عزمت عليّ إلاّ فعلتُ ، فسأصعد المنبر وأقول : طلب مني فلان أن أسب عليًا فقولوا معي يلعنه الله .

فقال له : لا تقل شيئاً . فقد فهم الوالي مقصد الخطيب وقدرته على استعمال الكلام على معنيين .

والحق يقول : « من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه » . وأريد أن تنتبهوا إلى أن أسلوب القرآن يأتي في بعض المواقع بألفاظ واحدة ، ولكنه يعدل عن عبارة

(١) القباء : ثوب يلبس فوق الثياب ويتمنطق عليه .. أي يشد عليه حزام ، ولعله ما يسمى بالقفطان .

إلى عبارة ، فيخيل لأصحاب النظرة السطحية أن الأمر تكرار ، ولكنه ليس كذلك ، مثلما يقول مرة : « يشترون الضلالة بالهدى » ومرة لا يأتي بالهدى كثمن للضلالة ويقول : « يشترون الضلالة » ، ولم يلتفتوا إلى أن هدى الفطرة مطموس عندهم هنا ، ومثال آخر هو قول الحق :

﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ﴾

(من الآية ٤١ سورة المائدة)

وفي الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول سبحانه : « يحرفون الكلم عن مواضعه » ، فكأن المسألة لها أصل عندهم ، فالكلام المنزل من الله وضع ـ أولا ـ وضعه الحقيقي ثم أزالوه وبدّلوه ووضعوا مكانه كلاما غيره مثل تحريفهم الرجم بوضعهم الحد مكانه .

أما قوله : « من بعد مواضعه » فتفيد أنهم رفعوا الكلام المقدس من موضعه الحق ووضعوه موضع الباطل ، بالتأويل والتحريف حسب أهوائهم بما اقتضته شهواتهم ، فكأنه كانت له مواضع . وهو جدير بها ، فحين حرفوه تركوه كالغريب المنقطع الذي لا موضع له ، فمرة يبدلون كلام الله بكلام من عندهم ، ومرة أخرى يحرفون كلام الله بتأويله حسب أهوائهم .

« ويقولون سمعنا وعصينا » . فهم يقولون قولاً مسموعاً « سمعنا » ثم يقولون في أنفسهم : « إنا عصينا » . فقولهم : « سمعنا وعصينا » ففي نيتهم « عصينا » ، إذن فقولهم « سمعنا » يعني سماع أذن فقط . إنما « عصينا » فهي تعني : عصيان التكليف ، وهم قالوا بالفعل سمعنا جهرا وقالوا عصينا سرًّا أو هم قالوا : سمعنا ، وهم يضمرون المعصية ، « واسمع غير مسمع » ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يُسْمِعُكم ، بدليل أنكم قلتم : سمعنا ، فماذا تريدون بقولكم : اسمع ؟ هل تطلبون أن يسمع منكم لأنه يقول كلاماً لا يعجبكم وستردون عليه ، أو أنتم تريدون استخدام كلمة تحتمل وجوهاً أخرى فتقلبونها إلى معانٍ لا تليق ، مثل قولكم : « غير مُسْمع » ما يسرك ، أو « غير مسمع » أي لا سمعت ، لأنهم يتمنون له ـ معاذ الله ـ الصمم ، وقد تكون سباباً من قولهم : أسمع فلان فلانا إذا سبَّه وشتمه ، فالكلام محتمل .

« واسمع غير مسمع وراعنا ليّاً بألسنتهم » لم يقولوا: « راعنا » من الرعاية بل من الرعونة ، فقال : لا . اتركوا هذا اللفظ؛لأنهم سيأخذون منه كلمة يريدون منها الإساءة إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ و« اللى » : هو فتل الشيء ، والفتل : توجيه شق الحبل الذى تفتله عن الاستقامة ، وهذا الفتل يعطيه القوة ، وهم يعملون هذه العمليات لماذا ؟ لأنهم يفهمون أنها تعطى قوة لهم .

« ليّاً بألسنتهم وطعناً فى الدين » ، وماداموا يلوون الكلام عن الاستقامة فهم يريدون شرّاً ؛ لأن الدين جاء استقامة ، فساعة يلويه أحد فماذا يريد ؟ .. إنه يريد « طعناً فى الدين » ، « ولو أنهم قالوا سمعنا » ، وبدلاً من إضمار المعصية يقولون : « وأطعنا واسمع وانظرنا » بدلاً من « راعنا » ، فـ« انظرنا » لا تحتمل معنى سيئاً .

إذن فمعنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى يريد أن يخبر أحباب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن خصومه يأتون بالألفاظ محتملة لذم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لذلك يوضح : احذروا أن تقولوا الألفاظ التى يقولونها ؛ لأنهم يريدون فيها جانب الشر وعليكم أن تبتعدوا عن الألفاظ التى يمكن أن تحول إلى شرّ . فلو قالوا سمعنا وأطعنا « واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن » ، وساعة تسمع كلمة « لكن » فاعلم أن الأمر جاء على خلاف ما يريده المشرع ؛ لأنه يقول : « ولو أنهم قالوا » ، لكنهم لم يقولوا ، إذن فالأمر جاء على خلاف مراد المشرع .

« ولكن لعنهم الله بكفرهم » و« اللعن » هو : الطرد والإبعاد ، فهل تجنّى الله عليهم فى لعنهم وطردهم ؟ لا . هو لم يلعنهم إلا بسبب كفرهم ، إذن فلا يقولن أحد : لماذا لعنهم الله وطردهم وما ذنبهم ؟ نقول : لا . هو سبحانه لعنهم بسبب كفرهم ، إذن فالذى سبق هو كفرهم ، وجاء اللعن والطرد نتيجة للكفر .

« ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا » . وساعة تسمع نفى حدث « لا يؤمنون » ثم يأتى استثناء « إلا » ، فهو يثبت بعض الحدث ، تقول مثلاً : لا يأكل إلا قليلاً ، كلمة « لا يأكل » نفت الأكل ، « وإلا قليلاً » أثبتت بعض الأكل ، فهو سبحانه يقول : « فلا يؤمنون إلا قليلاً » . والإيمان حدث يقتضى عدداً

هو : من آمن ، إذن ، فمندى حدث وفاعل الحدث ، فساعة تسمع استثناء تقول : هذا الاستثناء صالح أن يكون للحدث ، وصالح أن يكون لفاعل الحدث ، كلمة « فلا يؤمنون إلا قليلاً » تعني : فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً ؛ لأنهم يؤمنون قليلاً بالصلاة ، وبأنهم لا يعملون يوم السبت ، أما بقية مطلوبات الإيمان فليست في بالهم ولا يؤدونها ، أو فلا يؤمنون إلا قليلاً فقد يكون بعض منهم هو الذي يؤمن ، وهذا صحيح عندما نقوله ، لأن بعضاً منهم آمن بالفعل ، ونجد أيضاً أنهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، فيكون إيمانهم قليلاً بالحدث نفسه .

وهناك أناس منهم بعدما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتُلي القرآن ورأوا صورته فوجدوه مثلما وُصف عندهم تماماً فآمنوا ، ولكن هل آمن كل يهود ، أو آمن قليل منهم ؟ آمن قليل منهم مثل : عبدالله بن سَلاَم ، وكعب الأحبار ، إنما عبدالله بن صُورِيَا ، وكعب بن أسد ، وكعب بن الأشرف وغيرهم من اليهود فلم يؤمنوا .

إذن فإن أردت أن بعضاً « قليلاً منهم » هو الذي آمن فهذا صحيح ، ويصح أيضاً أن الكافرين منهم كانوا يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، وفي ذلك تعبير من الحق سبحانه وتعالى نسميه « صيانة الاحتمال » ؛ لأن القرآن ساعة ينزل بمثل هذا القول فمن الجائز ـ وهذا ما حدث ـ أن هناك أناساً من اليهود يفكرون في أنهم يعلنون الإيمان برسول الله ، فلو قال:« فلا يؤمنون » فقط لكان من الصعب عليهم أن يعلنوا الإيمان ـ لكن عندما يقول:« إلا قليلا » فالذي عنده فكرة عن الإيمان يعرف أن الذي يخبر هذا الإخبار عالم بدخائل النفوس ، فصان بالاحتمال إعلان هؤلاء القلة للإيمان .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا

مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾

نعلم أن كل التشريعات التى جاءت من السماء لا يوجد فيها تضارب ؛ فالمشرع واحد . ولن يشرع اليوم شريعة ثم يأتى رسول آخر يشرع شريعة أخرى جديدة . فأصول الأديان كلها التى جاء بها ركب الرسالات واحدة ، ولا تختلف إلا فى بعض الأحكام التى تتطلبها ظروف العصور ، وفى التشريع الواحد تتطور الأحكام وخصوصاً ما يتعلق بالعادات . وما كان الله سبحانه وتعالى الرحيم بعباده يأتى لمسألة من المسائل تعرض الناس فيها لعادة فتمكنت منهم تلك العادة ، وأصبحت تقودهم أن يفعلوها ثم يأتى لينهيها بكلمة . لم تأت الكلمة الفصل إلا فى العقيدة . لكن المسائل التى تحتاج إلى التعود فالحق يتلطف فى أن يخرجها خروجاً ميسوراً ، بمعنى أنه يجعلها مرحليات كى لا توجد فجوة الانتقال .

ويمكننا أن نشبه فجوة الانتقال : مثلما يكون هناك من يدخن السجائر ، ويصل معدل تدخينه فى اليوم مائة سيجارة ، فإذا قلنا له : اجعله خمسين سيجارة ، ثم ثلاثين ، وهكذا ، وبذلك نكون قد وزعنا عادته على بعض الزمن ، وبدلاً من أن تكون المسافة بين السيجارة والسيجارة عشر دقائق أو نصف ساعة فلنجعلها ساعة فنكون قد كسرنا جزءاً من الاعتياد ، وكذلك مرحليات الأمور الاجتماعية التى تنشأ من رتابة التعود .

إن الحق سبحانه وتعالى يقول : « يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزّلنا مصدقاً لما معكم » . فالحق يوضح : لم تأت بحاجة جديدة ، بل كلها مما عندكم . قد يقول قائل : مادامت مما عندهم فما الداعى لها ؟ . نقول : لأن هناك جديداً فى أقضية العصر التى لم تكن موجودة عندهم ، والذى زاد هو معالجة تلك الأقضية الجديدة ،

ولكن أصل الإيمان موجود بالقرآن المعجز الذى ينزل من السماء ، بالمعجزة ، بالتوحيد ، والقضايا العقدية ، كل هذه لا يوجد فيها خلاف .

« يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا » ، وكلمة « أوتوا الكتاب » إلزام لهم بالحجة ، وتعنى : نحن لا نكلمكم بكلام لا تعرفونه ، لأنه يقول : « مصدقاً لما معكم » إنهم يعلمون ما معهم جيداً ، فكان من الواجب أن يقارنوا ويوازنوا ما جاء لهم من جديد على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم بما عندهم ، فإن وجدوه مصدقاً لما عندهم فقد انتهت المسألة .

ثم انظر إلى التهديد « من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنّا أصحاب السبت ، وكان أمر الله مفعولا » ، سبحانه يناديهم : بادروا ، كما نقول مثلاً : « الحق نفسك وآمن » ويقول الحق : « من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها » . والطمس هو : المحو . فالشيء الذى طمس هو الذى محى بعدما كان شيئاً مميزاً ، وكلمة « وجوه » وردت فى القرآن بمعانٍ متعددة ، فتطلق مرة فى البدن على ما يواجه وهو « الوجه » كما فى قوله :

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ ﴾

(من الآية ١٠٦ سورة آل عمران)

وتطلق الكلمة مرة على القصد والنية والوجهة ، قال تعالى :

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ﴾

(من الآية ١١٢ سورة البقرة)

و« أسلم وجهه » تعنى قصده ووجهته ونيته .

إذن فمرة يطلق الوجه على الوجه الذى به المواجهة ، ومرة يطلق على القصد ، وما العلاقة بين القصد ، والنية ، والوجه ؟. لأن الإنسان إذا قصد شيئاً اتجه إليه بوجهه ، وسار له . إذن فالوجه يطلق على هذه الجارحة « الوجه » ، ويطلق على القصد والنية . ومادام يطلق بإطلاقين فيطلق على الوجه المعروف فينا ، ويطلق على القصد والنية التى توجهنا فالاثنان يصحان .

وقوله: « نطمس وجوهاً » لأنه سبحانه أوضح : أنا مكرمكم وجعلت لكم سمات تميزكم ، بشكلها : حواجب ، وعينين ، وأنفا جميلاً ، وفماً ، بحيث إنك لو أردت أن تخلق هذه الخلقة ، لما استطعت ، وسبحانه يعلن : أنا أقدر أن أطمس هذه الوجوه التى تميزكم ، بحيث أردها على الأدبار ، فيكون الوجه مثل القفا ، وتصبح كقطعة اللحم ، هذا إن أردنا بقوله: « وجوهاً » ، الوجه الذى فى البدن .

وإن أردنا بالوجه « القصد » نقول : الذين يشترون الضلالة ، والذين يريدون أن تضلوا السبيل ، والذين يحرفون الكلام عن مواضعه ، والذين يقولون : « راعنا » ، والذين يقولون : « اسمع غير مسمع » . أليس لهم وجهة ؟ وما وجهتهم فى هذا الموقف وما قصدهم ؟

إن قصدهم هو صرف أنفسهم وصرف الناس عن اتباع محمد ، فكأنه يقول لهم : بادروا وآمنوا قبل أن نطمس ونمحو قصدكم فلا يصل إلى منتهاه بِنْ صدكم عن الإيمان برسول الله ، الحقوا أنفسكم قبل أن يحدث ذلك ونلعنكم ونطردكم من رحمتنا ، ولذلك نجد سيدنا عبدالله بن سلام عندما سمع الآية ، ذهب إلى رسول الله ويده على وجهه وقال : والله لقد خفت قبل أن أسلم أن يُطْمس وجهى .

وهذا دليل على أنه آمن بأن الذى قال هذا الكلام قادر على الإنفاذ . وفى عهد سيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ نجد كعب الأحبار يذهب له ، ولم تكن الآية قد بلغته ، فلما بلغته ذهب إلى سيدنا عمر وهو واضع يده على وجهه خائفا أن يُطمس وجهه قبل أن يعلن إسلامه . وذلك دليل على يقينه من أن الذى قال هذا الكلام قادر على الإنفاذ .

وقد يقول قائل : ولكنّ منهم أناس لم يؤمنوا ولم يحدث لهم هذا الطمس . نقول : أهو قال سنطمس الوجوه فقط ؟ لا ، بل قال أيضاً : « أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت » ويكفى أن هناك أناساً اعتقدوا أن الطمس قد يجىء وهم من وجوه أهل الكتاب ومن أحبارهم ، فالذين آمنوا برسول الله من هؤلاء كانوا يعلمون كيد اليهود ، فسيدنا عبدالله بن سلام قبل أن يسلم قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

أنا أحب أن أسلم ، ولكني أخشى إن أسلمت أن يقول اليهود فيَّ شرًّا فقبل أن أسلم أسألهم عني ، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبار اليهود : ماذا تقولون في عبدالله بن سلام ؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا وعالمنا وحبرنا ومجددوه ، فلما سمع ابن سلام منهم هذا الكلام قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله فقالوا : هو ابن كذا وابن كذا وسبوه ، فقال ابن سلام : يا رسول الله ألم أقل لك : إنهم قوم بهت[1] .

فقد روى أن عبدالله بن سلام لما سمع بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه فنظر إلى وجهه الكريم فعلم أنه ليس بوجه كذاب ، وتأمله فتحقق أنه النبي المنتظر ، فقال له : إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي : ما أول شرائط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ والولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه ؟ فقال عليه السلام : « أما أول أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام أهل الجنة فزيادة كبد الحوت ، وأما الولد فإن سبق ماء الرجل نزعه ، وإن سبق ماء المرأة نزعته » فقال : أشهد أنك رسول الله حقا فقام ثم قال : يا رسول الله ، إن اليهود قوم بهت فإن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بهتوني عندك ، فجاءت اليهود فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم : أيُّ رجل عبدالله فيكم ؟ فقالوا : خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا ، قال : أرأيتم إن أسلم عبدالله ؟ قالوا أعاذه الله من ذلك ، فخرج إليهم عبدالله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فقالوا:شرنا وابن شرنا وانتقصوه ، قال : هذا ما كنت أخاف يا رسول الله وأحذر . قال سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ:ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشي على الأرض : إنه من أهل الجنة إلا لعبدالله بن سلام ، وفيه نزل : « قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله »[2] .

« من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها » فإن أردنا طمس الوجه حقيقة ، فهو الأمر الذي خاف منه عبدالله بن سَلام وكعب الأحبار ، هذا ذهب إلى رسول الله

( ١ ) قولهم بهت فلان فلاناً . قذفه بالباطل وافترى عليه الكذب ، واسم الفاعل بهوت والجمع بُهُت مثل : رسول ورسل .
( ٢ ) رواه البخاري ومسلم والنسائي .

وذلك ذهب إلى عمر ، وكل منهما كان يمسك وجهه خشية أن يطمس ، إذن فقوله : « نطمس وجوهاً » أى نجعلها مثل « القفا » مجرد قطعة لحم من غير تمييز ، أو نحول بينهم وبين قصدهم أى لا نمكنهم من الوصول إلى ما يريدون من صدهم الناس عن الإيمان برسول الله .. « من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها أو نلعنهم » أو أن نطردهم من رحمتنا ومن ساحة إيماننا ، فيقول الحق :

﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾

( من الآية ٧ سورة البقرة )

ماداموا هم قد كفروا نقول لكل منهم : ألم تكن تريد أن تكفر؟ والله سيزيد لك الختم على قلبك وسنعينك على هذه الحكاية أيضاً قال تعالى :

﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾

( من الآية ١٠ سورةالبقرة )

فإذا كنت أنت تريد هذه فسنعطيك ما فى نفسك « فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت » وسبحانه يخاطب اليهود ، واليهود يعرفون قصة السبت ويعرفون أنها واقعة حدثت ، وطردهم الله وأهلكهم ولعنهم وأعدّ لهم عذاباً عظيماً . إذن فهو لا يأتيهم بمسألة وعيد بدون رصيد ، لا ، فهذا وعيد يسبقه رصيد .. أنتم - يا معشر يهود- تؤمنون به وتذكرونه وله تاريخ عندكم ، « كما لعنا أصحاب السبت » ، وقصة أصحاب السبت معروفة وإن كانت ستأتى فى سورة أخرى ، و« السَّبت » وهو السكون والراحة ، ومنه السُّبات أى النوم ، فسبت يسبت يعنى سكن واستقر وارتاح .

« أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت » ، واللعن قالوا فيه : إنه الطرد والإهانة ، وقالوا فى معناه : إنه الإهلاك . والذين يحاولون أن يشككوا فى مفهومات آيات القرآن يقولون : أنتم لا تتفقون عند معنى واحد للكلمة ، إما أن يراد كذا ، وإما أن يراد كذا . نقول لهم : أنتم ليست لكم ملكة فى اللغة حتى وإن تعلمتم اللغة فتعلمكم للغة تعلم صنعة لا تعلم ملكة . وتعلم الصنعة يعطيك القاعدة ولكن لا يعطيك قدرة وضع اللفظ فى معناه الحقيقى ولا بيان المراد منه - واللعن - إذا كان

معناه الطرد ـ كان يجب أن تفهموا أن الطرد يقتضى طارداً ، ويقتضى مطروداً ويقتضى مطروداً منه .

ومن الذى يَطْرد ؟ .
ومن الذى يُطرد ؟ .
ومن أى شىء يُطرد ؟ .

حين تأخذون المعنى على هذا الوضع لا تجدون غضاضة فى أن تتعدد معانى الطرد . فهب أنك تجلس للأكل ثم جاءك كلبك الذى تمتز به للحراسة ليحوم حول مائدتك ، ماذا تصنع له ؟ . تطرده عن المائدة ، ذلك طرد . وهب أنّ ابنك مثلاً صنع شيئاً وعندك ضيوف فأردت أن تخرجه من المجلس وقلت له : اذهب عند أمك ، هذا طرد .

وإذا كان ذنب الابن كبيراً ولك سيطرة فأنت قد تخرجه من البيت فلا يجلس فيه ، وهذا طرد . وإذا كان ذنب الابن لا يُحتمل فأنت تخرجه من القرية ، وهذا طرد . فإذا كان هناك إنسان قد أذنب ذنباً كبيراً وكنت صاحب قوة نافذة فأنت تخرجه من الحياة كلها فتكون قد أبعدته من الحياة كلها . إذن فكل ذلك طرد . فإن أردنا الخزى والهوان يتأتى اللعن ، وإن أردنا الإهلاك فقد هلك منهم الكثير فى المعارك ونالوا الخزى والهوان ؛ لأننا سبينا نساءهم وبناتهم ، وقهرناهم ، وأهلكناهم ، وأخرجناهم من ديارهم إلى بلاد الشام وإلى أذرعات ، وأهلكهم الله بالموت . إذن فكل معانى الطرد تتأتى . فقد جاء يمس كل الذى حدث لهم ، ولكنه يختلف باختلاف الطارد ، وباختلاف المطرود ، وباختلاف المطرود منه .

وحين يقول الحق : « كما لعنّا أصحاب السبت » فهذا يدل على أن اللعن له أشياء مختلفة ، أنا سآخذ منها لعن أصحاب السبت ، والسبت يوم من أيام الأسبوع ، أى وحدة زمنية فى الأسبوع ، ونلحظ أن بقية أيام الأسبوع السبعة فيها إشارات إلى العدد، يوم الأحد يعنى واحداً ويوم الاثنين تعنى اثنين،وهكذا فى الثلاثاء والأربعاء والخميس، فتيه خمسة أيام بأعداد موجودة إلا يومين اثنين لم يؤثر فيهما العدد : يوم « الجمعة »،

ويوم « السبت » ، وهذان اللفظان أخذا معانى غير العددية ، ولكنهما يأخذان معنى العددية بالبعدية أو القبلية .

يعنى عندما تقول مثلاً « الخميس » ليكون يوم الجمعة يعنى « ستة » ، إنما لم يقل « ستة » وقال « الجمعة » ويوم « السبت » يكون سبعة ، إذن فأنت تستطيع أن تضع العدد البعدي بعد الأعداد : واحد . اثنين ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، ستة ، سبعة ، لكننا نجد أن لهما اسمين مختلفين ؛ لأن فى كل واحد منهما حدثاً غلب العددية . فـ« الجمعة » للاجتماع ، فتركنا كلمة « ستة » وأخذنا بدلا منها « الجمعة » ، و« السبت » للسكون ؛ لأن مادتها فى اللغة : سبت يسبت ، أى سكن وهدأ ولم يتحرك ، مثل قول الحق :

﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ ﴾

( سورة النبأ )

أى سكوناً وهدوءاً .

والحق سبحانه وتعالى حين يريد ابتلاء بعض خلقه ليَعْلَم منازلهم من الإيمان واليقين والانصياع لأوامر الحق ، يأتى فيحرم حدثاً فى زمن وهو مباح فى غير ذلك الزمن ، فقد يحرم الصيد فى أحد الأيام وكان مسموحاً بأن يصطادوا فى كل يوم ، وكانوا يأتون بالسمك كرزق من البحر ، فجاء فى هذا اليوم خصوصاً وقال لهم : لاتصطادوا فى هذا اليوم ، أى أن يسكنوا عن الحركة ، هذا هو « السبت » بمعنى السكون ، و« أصحاب السبت » هم الجماعة الذين اجتمعوا على حادثة تتعلق بالسبت أو تتعلق بالسكون ، أى تتعلق بعدم العمل وبعدم الحركة ، وقضية أصحاب السبت شرحها الحق وتكلم عنها إجمالياً فى سورة البقرة :

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ ﴾

( من الآية ٦٥ سورة البقرة )

وقوله هنا : « كما لعنَّا أصحاب السبت » ، لكن القصة بالتفصيل ذكرها الحق سبحانه وتعالى وقال مخاطباً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالله الآمر ، والرسول هو الذى سأله الله أن يسأل ، والمسئولون هم أصحاب الحكاية وهم اليهود ، وحين

يطلب الحق خبراً مؤكداً من الأخبار ، قد يلقيه خبراً فيصدقه أهل اليقين الذين يثقون فى الله ويصدقونه ، وقد لايتركه خبراً ، بل يأتى به فى صيغة الاستفهام ؛ لأنه واثق أن المستفهم منه لايجد جواباً إلا الحق الذى يريده سبحانه وتعالى ، وعندما يقول ربنا لنبيه :

﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

( ١٦٣ سورة الأعراف )

ذلك حدث لايستطيعون إنكاره ، وكان من الممكن أن يقص الله الحدث من عنده ، ولكنه يريد أن يوثق الحدث توثيقاً لايحتمل إنكار منكر ولا مكابرة مكابر ، فأوضح : أنا لاأقول عن الحدث ، ولكن يامحمد اسألهم أنت عن هذه الحادثة فسيكون جوابهم جواباً مطابقاً لما حدث ، لأنها مسألة واضحة لا تنكر .

« واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر » وكلمة « قرية » نأخذها من « القِرَى » . والقِرَى هو أن تكرم واحداً مقبلاً عليك كضيف مثلاً . ولكن ليس عندك مايعطيه « قرى كاملاً » أى مايقيم حياته لأيام أو شهور ، بل عندك « قِرْيَة واحدة » ، أى أكلة واحدة تكفيه لوجبة واحدة ، فمادام قد مر عليك فأنت تعطيه قرية واحدة ـ وجبة واحدة ـ فإن كانت البلد « أم القرى » : فيكون فيها حاجات كثيرة ، أو لأنها أعظم القرى شأناً .والقَرْية التى جاء ذكرها فى سورة الأعراف يتم تعريفها بأنها : « حاضرة البحر » والحاضر هو القريب . فيقال : حضر فلان أى أصبح على مقربة منى ، و « الحاضرة » أيضاً هى : التى إن طلبت فيها شيئاً وجدته ، كما قال شوقى ـ رحمة الله عليه :

ليلى بجانبى كل شىء إذن حضر

فكذلك « الحضر » معناه : أن كل حاجة فيها موجودة ، أما البادية فحاجاتها تكون على قدر أهلها فقط ، ولذلك فـ « حضر » ضد « بادية » وأخذوا منها « الحواضر » مثل العواصم الآن ، إذن فقوله : « حاضرة البحر » نأخذها بمعنى قريبة

من البحر ، أو أنها هى البلد المتحضر على البحر ، أو الجامعة لأنواع الخير على البحر ، وهى التى كانت بين « مدين » و« الطور » واسمها « أيلة » .

وقصتهم : أن الله أراد أن يبتليهم بشىء وهو : تحريم الصيد فى ذلك اليوم ، ومادامت « حاضرة البحر » ، فرزقهم على الصيد ، فقال : لاتصطادوا فى هذا اليوم ، ولكن الله حين يريد أن يحكم الابتلاء ليعلم علم إبراز لخلقه مدى تنفيذهم للابتلاء ، وإلا فهو عالم ماذا سيفعلون . فقال : لاتصطادوا فى هذا اليوم . قد يقول قائل : لماذا حرم هذا الحدث فى ذلك الزمن ؟ . نقول له : أنت تريد أن تعلم من الله أن كل تحريم له مضارة ، نقول لك : لا ، فقد يكون تحريم ابتلاء واختبار ، ولذلك قال تعالى :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

« الطيبات » هى الحلال ، لكنهم هم فعلوا مايستحقون عليه العقاب ، فقلنا لهم : مادمتم تجاوزتم حدودكم وأخذتم ماليس حلاً ، فجعلتموه حلاً فلابد أن أجعل من الحل الذى هو لكم حراماً عليكم ، هذه مقابل تلك ، فلماذا اجترأت على محرم فأحللته ؟وما دمت قد فعلت ذلك ولم ترتض تحليل وتحريمى فأنا سآخذ شيئاً من الذى كان حلاً لك وأحرمك منه .

إذن فلا يتطلب من كل تحريم أن يكون فيه مضارة ، إن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يكون الإيمان له أصول ثابتة ، ولذلك يقول :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) ﴾

(سورة الحج)

إذن فالحق لايريد من الناس أن يعبدوه على حرف .. أى على طرف من الدين بل فى وسطه وقلبه .. أى أنهم على قلق واضطراب فى دينهم لا على سكون وطمأنينة ، كالذى على طرف المعسكر والجيش .. فإن أحس بظفر ونصر وغنيمة سكن واطمأن ، وإلا فر وطار على وجهه . هو يريد منك إيماناً حقاً ، ولذلك فبعض الناس

يقول : سأزكي لأزيد من مالي . نقول له : اخرج من بالك ظنك أن مالك سيزيد ، بل أنت تزكي لأن الله طلب منك أن تزكي . أما أن يزيد مالك فهذا شيء آخر ، فلعل الله يبتلي إيمانك ويريد أن يرى : أأنت مقبل على الحكم لأن الله قاله ، أم لأنه سيعطيك ربحاً زائداً ؟ وسبحانه حين يعطي ربحاً زائداً ستزكيه أيضاً ، لكن هو يريد من يقبل على الحكم لأنه سبحانه قد قاله .

وقد حرم الحق سبحانه وتعالى عليهم الصيد يوم السبت بظلم منهم ، وكان من الجائز جداً ألا يكون هناك مغريات على المخالفة ، ولكنه أراد أن يبلوهم بلاءً حقاً فيأتي في اليوم المحرم فيه الصيد ويُكثّر من السمك ، ترى السمكة ظاهرة مثل شراع المركب ، وهذا معناه إغراء بالمخالفة ، فلو لم يظهر السمك في هذا اليوم لكانت المسألة عادية ، لكنهم حين ينظرون السمك وقد « شرع » مثل المراكب سابحاً في الماء ، « إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرَّعاً ويوم لايسبتون لاتأتيهم » .

إذن فالابتلاء جاء من أكثر من زاوية : يوم سبتهم تأتي الحيتان شُرَّعاً ، وفي غير يوم السبت لاتأتي ، وهذا الأمر يجعلهم في حالة قلق . فلو كانوا على اليقين والإيمان لالتزموا بالأمر .

والله سبحانه وتعالى يريد أن يمحصهم التمحيص الدقيق ، فماذا هم فاعلون ؟ هم يريدون أن ينفذوا الأمر ، إنما طمعهم المادي يصعب عليهم ألا يصطادوا هذا السمك الذي يأتيهم يوم السبت ، ولو أنهم وثقوا بعطاء الله في المنع لنجحوا في الاختبار . ذلك أن الحق قد يجعل في المنع عطاء ، لكن مَن الذي ينتبه لذلك ؟

لم يقولوا : ما عند الله خير من هذا السمك الشُّرع الذي يأتينا ويلفتنا . لكنهم احتالوا حيلاً ، مثلاً : صنعوا من الأسلاك والحبال « مصايد » و« جُبَى » و« ملالف » يحجزون بها هذا السمك الشُّرع في الماء ثم يأتون في اليوم التالي فيجدونه محبوساً ، وظنوا أنهم بذلك احتالوا على الله ولم يفهموا معنى الصيد ، فالصيد هو جعل السمك في حيازتك ، ومادمت قد عملت بحيث تمكن من حيازة السمك في أي وقت تكون قد اصطدت . إذن فهم يحتالون على الله ؛ ولذلك قال سبحانه :

﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

( ١٦٣ سورة الأعراف )

ومادام الواحد منهم يفسق ويحل لنفسه شيئاً حرمه ربنا عليه ، فيوضح له ربنا : مادمت قد فعلت ذلك فسوف أحرم عليك شيئاً أحللته لك ، لأنك أعطيت لنفسك حرية فى أن تحل ماحرمت ، فأنا سأحرم ما أحللت لك .

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾

( سورة الأعراف )

وهذا دليل على وجود عناصر خير فيما بينهم ، وقالت عناصر الخير : اتقوا الله . فقال لهم آخرون : لِمَ تعظون قوماً الله مهلكهم ، إذن فهناك ثلاث جماعات : جماعة خالفوا ، وجماعة أرادوا أن يعظوهم كى لايقعوا فى المخالفة ، وجماعة لاموا من يعظونهم وقالوا : دعوهم ليهلكهم الله أو يعذبهم .. « الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً » . فقالت الجماعة التى تعظ : نحن نريد بالوعظ أن يكون لنا عذر أمام الله بأننا لم نسكت على المنكر ونحن نعمل لأنفسنا . « قالوا معذرة إلى ربكم » وأيضاً فلعلهم يتقون ربهم بترك ماهم فيه من المعصية والفسق . فماذا حدث ؟ .. يقول الحق :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾

( سورة الأعراف )

ومادام قد قال : « أنجينا » ، فهناك مقابلها وهو « أهلكنا » ، إذن فجاء هنا « اللعن » بمعنى الهلاك .

ويختم الحق الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : « وكان أمر الله مفعولاً » ، نعم لأن الحق سبحانه وتعالى بقدرته الشاملة وصفات جلاله الكاملة ، لا يتخلف شىء فى

وجوده عن أمره ، فإذا وعد بشيء فلابد أن يحدث ، فأمر الله غير أوامر البشر ، فأوامر البشر هي التي تتخلف أحياناً سواء أكانت وعداً أم وعيداً ، لأنك قد تعد إنساناً بخير ، ولكنك ساعة أداء الخير لا تستطيعه ، فتكون قدرتك هي التي تحتاج إلى أداء الخير . أو تتوعد إنساناً وتهدده بشرّ ، وستعمل فيه كذا غداً ، وقد يأتيك غداً مرض يقعدك فلا تستطيع إنفاذ وعيدك .

إذن فأنت قد لا تستطيع إنفاذ شيء من وعدك ولا شيء من وعيدك ؛ لأن قدرتك من الأغيار ، ومادامت قدرتك من الأغيار فقد توجد أو لا توجد . لكن الحق سبحانه وتعالى إذا قال بوعد أو قال بوعيد أيوجد شيء يغير هذا ؟ لا . إذن فساعة يقول ربنا بوعد أو وعيد فاعرف أن هذا سيحدث في الوعد ، أما في الوعيد فإن الله قد يتجاوز عنه كرما وفضلا ما عدا الشرك بالله .

ونعرف أن الحق سبحانه وتعالى يوزع الأحداث على الزمن ، فلا زمن يقيده ؛ لأنه يملك كل الزمن ، أما أنت كواحد من البشر فتتكلم عن الحدث حسب زمانه.فإن كان هناك حدث قد حصل قبل أن تتكلم أنت عنه ، فتقول : فعل « ماض » . أي أن الحدث قد وقع في زمن قبل زمن تكلمك ، وإن كان الحدث يقع في وقت تكلمك ، كان الفعل « مضارعا » ، والمضارع صالح للحال وللاستقبال ، تقول : فلان يأكل . وذلك يعني أنه يأكل الآن . وإن قلت : « سيأكل » ـ أي أنه سيأكل بعد قليل ، فإذا قلت عن أمر مستقبل إن هذا الأمر سيحدث ، أتملك أنت أن يحدث ؟ لا . إذن فالكلام منك على الاستقبال قد يكذب وقد يصدق ، لكن إذا قال الحقّ وأخبر عن أمر مستقبل وعبّر عنه بالفعل الماضي فمعنى ذلك أنه حادث لا محالة ؛ ولذلك فالزمن عند ربنا مُلغى .

وعندما نقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ ﴾

(من الآية ١ سورة النحل)

« وأتى » هذه فعل ماض ، وقوله : « أتى » يدل على أنه أمر قد حدث قبل أن يتكلم ، وقوله : « فلا تستعجلوه » دلّ على أنه لم يحدث .فالذي يشكك في القرآن يقول : ما هذا الذي يقوله القرآن .؟ يقول : « أتى » وهو لم يأت ؟ .. نقول له : هذا الكلام عندك أنت . لكن إذا قال الله : إنه « أتى » فهو آتٍ لا محالة ، فاحكم

على الحدث المستقبل من الله على أنه أمر كائن كما يكون كائناً ماضياً ، مادام قال فلا رادّ لأمره . « أى أمر الله » فهى تعنى سيأتى . ولا توجد قدرة فى خلقه تصرف مراده أو تعجزه عن أن يفعل .

وقوله سبحانه : « وكان أمر الله مفعولا » جاء لأنه قال من قبل « أو نلعنهم » هذه مستقبل . وقد يقول قائل : أن « نلعنهم » تعنى أن اللعنة لم تأت وقد لا تحدث ، ونقول: لا؛ لأن أمر الله كان مفعولاً، فإياك أن تأخذ « نلعن » هذه التى للمستقبل كى تطبقها عند ربنا ، لأن الحق سبحانه وتعالى يوضح لك : أنت الذى عندك المستقبل ، والمستقبل قد يقع منك أو لا يقع ؛ لأنك لا تملك أسباب نفسك ، تقول : سأعمل الشىء الفلانى غداً . وقد يأتى غداً وتكون أنت غير موجود هذه واحدة، أو تقول: سأقابل فلانا. وفلان هذا قد لا يكون موجوداً فقد يموت، أو قد يتغير رأيك ويأتيك الشىء الذى كنت تطلبه قبل أن تتكلم مع ذلك الإنسان ، أو قد تقول : أنا سأنتقم من فلان ، وعندما يأتى وقت الانتقام يهدأ قلبك .

إذن فأنت لا تملك شيئاً من هذا ، فلا يصح أن تجادل ؛ ولذلك يعلمنا الله الأدب مع الأحداث ومع الكون ومع المكون ، ويخرجنا عن أن نكون كذابين فيقول لرسوله :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾

(الآية ٢٣ وجزء من ٢٤ سورة الكهف)

يعلمك الحق ذلك حتى لا تكون كذاباً ، فإن قلت : أنا فاعل ذلك غداً ثم لا تفعله ، ومادمت لا تفعله فتكون كذاباً مجترئا ؛ لأنك افترضت فى نفسك القدرة على الوجود .

وكل حدث من الأحداث مثلما قلنا : يحتاج إلى « فاعل » ، ويحتاج إلى « مفعول » يقع عليه ، ويحتاج إلى « زمن » ويحتاج إلى « سبب » ، ويحتاج إلى « قدرة » تبرزه فى المستقبل ، قل لى بالله عليك : ماذا تملكه من عناصر الفعل ؟

أنت لا تملك وجود نفسك ولا تملك وجود المفعول ولا تملك السبب ، ولا تملك

القدرة ، ولا تملك شيئاً ، فأدباً منك عليك أن تقول : « إن شاء الله » فإن لم يحدث تقول : أنا قلت إن شاء الله وهو لم يشأ ، فتكون قد خرجت من التبعة ، ولم تكن كذاباً . إذن فقول الحق : « وكان أمر الله مفعولاً » لأنه قال : « أو نلعنهم » ، و« نلعن » هذا فعل مضارع ويأتي من بعد ذلك ، فواحد قد يقول : إنه سبحانه قال : سيلعن ، فهل ستتحقق اللعنة ؟ نقول له : نعم ؛ لأنه قال : « وكان أمر الله مفعولاً » . وكذلك ساعة تقرأ أو تقول : « وكان الله غفوراً رحيماً » . فعليك أن تضيف : ولايزال غفوراً رحيماً ، لأن صفة الرحمة لم توجد له ساعة وجد المرحوم ، لا . بل معنى « رحيم » أنه سبحانه يرحم غيره والذى وُجد ليتلقى رحمته سبحانه إنما جاء بعد أزليّة رحمة الله ومغفرته،فسبحانه أزلىّ قديم . والصفة أزلية وقديمة بقدمه ـ سبحانه قبل أن يوجد من يرحمه ، وهو لا تأتيه أغيار . ومادام سبحانه رحيماً قبل أن يوُجدَ مرحوماً له فإذا أوجد مرحوماً له ، أتنحلّ الصفة أم تبقى ؟ إنها باقية دائماً فكان الله ولا يزال غفوراً رحيماً ، « وكان امر الله مفعولاً » نعم ، لأنه قد يفعله بأسبابه وقد يفعله بدون أسباب فالأمر متروك لمشيئته فإما أن يوجد الشيء من غير سبب أو يوجده بسبب،والشيء الموجود بالسبب مخلوق بالمسبب،فسبحانه خلق الأسباب .

وبعد ذلك ينتقل الحق سبحانه إلى قضية عقدية أساسية فى صلة الإنسان بالحق سبحانه وتعالى . يقول :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾

هذه من أرجى الآيات فى كتاب الله ، ولذلك ضجيتها سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما موجبات الإيمان ؟ أى ما الذى يعطينا الإيمان ؟ فقال صلى الله عليه وسلم :